التقنية

مارتن هيدغر

سنعمل على معالجة هذه الموضوعة بشكل مفصل، لأن التقنية–بالمعنى الدقيق– تكتسح مجال تأملنا كله وتهيمن عليه. فعندما يتم الحديث اليوم عن التقنية، فإنه يفهم من ذلك تقنية الآلات في العصر الصناعي. غير أن هذا التحديد أضحى الآن غير دقيق. ذلك أننا نثبت في العصر الصناعي ثورتين تقنيتين. تتجلى الأولى في الانتقال من التقنية الحرفية إلى تقنية الآلات ذات المحرك. أما الثانية فتتجلى في الانطلاق والسيادة القصوى للآلية(Automation) التي يتحدد مبدؤها الأساسي في تقنية التنظيم والتوجيه، السيبرنتيقا. إن ما يعنيه هنا مصطلح تقنية ليس واضحا للوهلة الأولى. فيمكن أن تعني التقنية مجموعة مجموع الآلات والأجهزة التي تعرض مأخوذة فقط كموضوعاتها، جاهزة أو في حالة اشتغال. وقد تعني التقنية إنتاج موضوعاتها، الإنتاج الذي يسبقه مشروع وحساب. ويمكن أن تعني أيضا الانتماء المتبادل داخل مجموع من الإنتاجات والبشر أو المجموعات الإنسانية التي تعمل على تشييد وصيانة ومراقبة الآلات والأجهزة. بيد أن مجال حديثا سيصبح–على الأقل بشكل تقريبي– محددا، إذ ما حاولنا الآن أن نحصر في سلسلة من خمس أطروحات التصورات الشائعة اليوم حول التقنية.

لنحص إذن هذه الأطروحات. إن توضيحها لن يأتي مع ذلك حسب نظامها الخاص، بل سيتطور بدلالة التلازمات القائم بينها.

فحسب التصور الجاري:

1– التقنية الحديثة وسيلة تم اختراعها وإنتاجها من طرف الإنسان، أي هي أداة لتحقيق الغاية الصناعية بالمعنى الواسع وكما رسمها الإنسان.

2– التقنية الحديثة، بما هي أداة موضع بحث، هي التطبيق العملي لعلم الطبيعة الحديث.

3- إن التقنية الصناعية المؤسسة على العلم الحديث هي ميدان خاص داخل الحضارة الحديثة.

4- إن التقنية الحديثة هي الاستمرارية المتقدمة والمتقنة بالتدريج، للتقنية الحرفية القديمة حسب الإمكانات التي توفرها الحضارة الحديثة.

5- تقتضي التقنية الحديثة كأداة إنسانية، أن تكون خاضعة لمراقبة الإنسان، وأن يضمن هذا الأخير التحكم فيها كموضوع من اختراعه الخاص.

لا أحد يمكن أن يعترض على دقة هذه الأطروحات التي أتينا على ذكرها والمتعلقة بالتقنية الحديثة. لكن يبقى السؤال قائما حول معرفة ما إذا كانت هذه الدقة تبلغ بشكل كاف ماهو خاص في التقنية الحديثة، أي ما يحددها أولا وقبل كل شيء ومن أولها إلى آخرها. إن السمة الخاصة للتقنية الحديثة التي نحاول أن نحصرها يجب أن تمكننا من معرفة مدى تماسك ما تم ذكره في الأطروحات الخمس وبأي كيفية.

في حين أنه، يبدو للنظرة المتيقظة، ومنذ أول إشارة لهذه الأطروحات، أن التصورات الشائعة عن التقنية الحديثة، حول خاصية أساسية، ويمكن تعريف هذه الأخيرة انطلاقا من لحظتين ترجع الواحدة منهما إلى الأخرى.

تعرف التقنية الحديثة، ككل تقنية، بأنها موضوع إنساني، تم اكتشافه وتطبيقه وتطويره وتوجيهه وتشييده بدقة من طرف الإنسان ومن أجل الإنسان. ويكفي لإثبات الخاصية الأنثروبولوجية للتقنية الحديثة، الإحالة إلى أنها قائمة على علم الطبيعة الحديث. ونفهم العلم هنا كعمل وصنيع إنسانيين. وهذا يسري أيضا بمعنى واسع وشامل على الحضارة، التي تشكل فيها التقنية ميدانا خاصا. إن هدف الحضارة هو تكوين وتطوير وحماية إنسانية الإنسان. هنا يمكن سؤال موضوع نقاشنا السابق: هل الثقافة التقنية وتبعا لها التقنية ذاتها تمهد بشكل عام، وإذا كان الجواب بنعم، فبأي معنى، لثقافة إنسانية أم أنها تهدد هذه الأخيرة بالانهيار؟

مع التصور الأنثروبولوجي للتقنية يتم في نفس الوقت عرض اللحظة الثانية. إن الفعل اللاتيني Instruere يعني: نضد بكيفية جيدة ومتجاورة، يعني شيد، نظم وأرسى بكيفية متماسكة. إن L'Instrumentum هي للجهاز أو الأداة، أداة العمل، وسيلة النقل، أو الوسيلة بصفة عامة. تعرف التقنية بأنها شيء يستعمله الإنسان، يستعمله من منظور نفعي. إن التصور الأداتي للتقنية يسمح لنا أن نقوم بلمحة موجزة، تمكن من الحكم على تاريخ التقنية إلى أيامنا، كوحدة في كلية تطوره. ففي أفق التصور الأنتروبولوجي- الأداتي للتقنية، يمكننا أن نثبت

بسهولة بأنه لا يوجد في العمق أي اختلاف جوهري بين الفأس الحجري وآخر إنتاجات التقنية الحديثة، القمر الصناعي telstar فكلاهما أداتان، وسيلتان صنعتا من أجل غايات محددة. فإن كان الفأس الحجري أداة بدائية، فإن القمر الصناعي بالمقابل جهاز معقد تعقيدا أقصى، يكشف عن اختلاف هائل في الدرجة، لكنه لايغير شيئا في خاصيته الأداتية، أي التقنية. تصلح الواحدة منهما، أي الفأس الحجري، لنحت وصنع أجسام ذات ديمومة نسبية في الطبيعة. أما الأخرى، أي القمر الصناعي الخاص بالتلفزة، فهو أداة تسمح بالنقل والترحيل من أجل تبادل كوني مباشر للبرامج المتلفزة. من المؤكد أن كل واحد سيسارع إلى تسجيل أن الاختلاف الهائل بين الأداتين لايسمح أبدا تقريبا بمقارنة الواحدة منهما بالأخرى، وحتى لو طمأننا أنفسنا بفكرة أن لهما نفس الخاصية الأداتية مدركة بكيفية إجرائية ومجردة. بيد أنه عندما نسلم بأن السمة الأداتية غير كافية لتعريف ما هو خاص بالتقنية الحديثة وصناعاتها، فإن التصور الانثروبولوجي–الأداتي للتقنية يبقى أكثر وضوحا وأكثر تباثا ما دمنا نفسر الاختلاف الأكيد للأداتين بالتقدم الهائل للتقنية الحديثة، والحالة هذه، فالتصور الأنتروبولوجي الأداتي لايبقى مهيمنا فقط لأنه يفرض نفسه مباشرة وبشكل واضح، بل لأنه دقيق في مضمونه، لقد تمت تقوية الدقة وتمتينها لأن التصور الأنتروبولوجي لا يحدد فقط تأويل التقنية التقنية، بل إنه يفرض نفسه بالدرجة الأولى في كل المجالات كنمط للتفكير هو بمثابة قانون. إنه لمن العسير جدا كذلك أن نعترض مباشرة على دقة التصور الأنثروبولوجي الأداتي للتقنية. وعندما نعترض بأن مسألة التقنية لايتم بذلك كشفها، ذلك أن ماهو دقيق ليس بعد هو الحقيقي، أي ما يبين لنا ويحفظ ما هو خاص في الشيء. لكن كيف يمكننا أن نصل إلى السمة الخاصة للتقنية الحديثة؟

كيف يمكن لنا أن نعيد التفكير في التصور الجاري للتقنية الحديثة؟ إن المسار الوحيد ظاهريا هو أن نأخذ بعين الاعتبار، بشكل خاص، الواقعة التي تسمى تقنية حديثة، وبشكل خاص انطلاقا مما يوجد اليوم.

إن تحويل الفكر الذي يبدأ من هذا المنطلق والذي يقوم على تمثل حاسم يجب أن يكتفي بأن يظل مجرد افتراض. بيد أنه حتى من حيث أنه افتراض، فإنه مغامرة لصالح الحكم العادي. لكي نضع مشروعا كهذا في المسار المناسب، إنه لمن الضروري أن نفكر أولا وبإيجاز في كلمة«تقنية»إن مهمة الفكر المهيمن اليوم هي التفكير في الكلمة، التي تسمي شيئا كشيء خارجي ومن هنا كشيئ، كغير مجد– غير أنه لايوجد هنا سبب كاف يمنعها من مباشرة تفكير من هذا النوع.

إن كلمة تقنية مشتقة من الكلمة الإغريقية تكنكون Tecknikon وتعني هذه الأخيرة ما يعود إلى التيخني. إن لهذه الكلمة، منذ فجر اللغة الإغريقية، نفس دلالة كلمة ابستيمي، أي: راقب شيئا وفهمه. تعني التخني: مهر في الشيء، وبالتحديد في عملية إنتاج شيء ما. لكن لكي نتناول ما فكر فيه الإغريق وكذلك لكي نفهم بشكل مناسب التقنية اللاحقة أو الحديثة، كل هذا يتوقف على تفكيرنا في الكلمة بمعناها الإغريقي دون أن نسقط عليها تمثلات بعدية أو راهنة. فالتيخني: يتم التعرف عليه في عملية الإنتاج، مهر في الشيء هو نوع من المعرفة، من التعرف، والمعرفة. إن أساس عرف يقوم، في التجربة الإغريقية، في الفتح، وفي كشف ماهو معطى كحاضر. في حين أن فعل الإنتاج مفكرا فيه إغريقيا لا يعني بعد صنع واستعمل، بل بالأحرى ما تريد أن تقوله كلمتنا الألمانية «Herstellenå» حرفيا: Stellenوضع وأقام ما لم يكن معطى من قبل كحاضرHer مستدعيا إياه إلى الظهور. ولكي نتحدث بشكل مختصر نقول: إن التيخني ليس مفهوما يتعلق بالفعل، بل إنه مفهوم يتعلق بالمعرفة. إن كلمتي تيخني وتقنية تدلان على أن شيئا ما يوجد في حالة انكشاف وقابلية للاستعمال. كما أنهما تشيران إلى أن هذا الشيء كشيء حاضر يتم تثبيته في موضع خاص، في حين أنه بالقدر الذي يسود في التقنية مبدأ المعرفة فإن هذه الأخيرة تدعم انطلاقا من ذاتها إمكانية وإلزامية صياغة متفردة لمعرفتها الخاصة وذلك في اللحظة ذاتها التي يعطي فيها علم يوافقها ويطورها. هنا يكمن حدث ما. وهذا الحدث لم يحصل إلا مرة واحدة خلال تاريخ الإنسانية كله: داخل تاريخ الغرب الأوروبي أو كبداية لهذا العصر الذي يسمى بالأزمنة الحديثة.

وهكذا سننظر الآن مليا في وظيفة علم الطبيعة وفي خاصيته المتفردة داخل التقنية الحديثة واضعين نصب أعيننا الماهية الخاصة للتقنية الحديثة انطلاقا مما يوجد(est) اليوم.

إن المظهر الثاني الذي يشد أنظارنا إلى جانب الدور البارز لعلم الطبيعة، هو الهيمنة اللامحدودة للتقنية الحديثة التي لايمكن مقاومتها، وربما هذان المظهران مترابطان، لأن لهما نفس الأصل.

إن التقنية الحديثة بالنسبة للتصور الأنثروبولوجي–الأداتي هي التطبيق العملي لعلم الطبيعة. ومع ذلك فأكيد أنه حتى بالنسبة للفيزيائيين والتكنولوجيين تتعدد النداءات التي تعتبر، رغم كل شيء، أن تعريف التقنية الحديثة كعلم طبيعة مطبق تعريف غير كاف. فعوض ذلك يتم الحديث اليوم عن العلاقة بين علم الطبيعة والتقنية كـ «إسناد متبادل» (Heisenberg) وخصوصا الفيزياء النووية التي أقحمت في وضعية غدت معها مجبرة على إقرار إثباتات محيرة: أي أن

الجهاز التقني المستعمل من طرف الملاحظ في عملية من عمليات التجريب يحدد بشكل متبادل ما يمكن في كل مرة الإحاطة به في الذرة وما ليس كذلك، أي تجلياتها. وهذا لايدل على شيء آخر سوى ما يلي: إن التقنية هي المحدد المتبادل في فعل المعرفة ولايمكن لها أن تكون كذلك إلا لأن طابعها الخاص يشتمل على سمعة من سمات المعرفة. ومع ذلك فلايتم الذهاب بالتفكير بعيدا، بل يتم الاطمئنان إلى إثبات العلاقة التبادلية بين علم الطبيعة والتقنية. تتم تسمية كلا الاثنين ب«الأختين التوأمين»وهو الشيء الذي لا معنى له ما دمنا لم نأخذ بعين الاعتبار أصلهما المشترك. فعندما نأخذ بعين الاعتبار وضعية العلاقة المتبادلة بين الاثنين، أكيد ءننا نقترب من الحقيقة، لكن بالمعنى الذي تغدو معه هذه الأخيرة ملغزة وبالتالي جديرة بالسؤال. فلايمكن أن توجد تبادلية بين علم الطبيعة والتقنية إلا إذا تمت بنينتهما على نفس الشاكلة، إلا إذا كف العلم عن أن يكون مجرد أساس للتقنية وهذه الأخيرة عن أن تكون مجرد تطبيق العلم، إن الأحمر والأخضر متشابهان، ماداما يشتركان في الخاصية المماثلة وهي أنهما في نهاية المطاف لونان.

ولكن ماهي النقطة التي يتضافر فيها علم الطبيعة والتقنية الحديثة لدرجة التطابق؟ ماهي السمة الخاصة لكل منهما؟ لكي نضع هذا نصب أعيننا، على الأقل بشكل تقريبي، نرى أنه من الضروري أن نأخذ بعين الآعتبار جديد علم الطبيعة في العصر الحديث. لقد تم تحديد هذا الأخير بشكل واع تقريبا بواسطة السؤال الموجه التالي: كيف أجبرت الطبيعة على الخضوع لتصميم مسبق من حيث هي مجال للموضوعية حتى تغدو السيرورات الطبيعة قابلة للحساب بشكل قبلي؟ يتضمن هذا السؤال جانبين: يتضمن من جهة حكما حول نوعية الواقع الطبيعي. وقد عبر ماكس بلانك، مؤسس الفيزياء الكوانطية، عن هذا الحكم في عبارة وجيزة: «الواقعي(Wirklish)هو ما يمكن قياسه» فوحده ما هو قابل للحساب بشكل مسبق هو ما يعتبر موجودا. ومن الجهة الأخرى، تشتمل الفكرة الناظمة لعلم الطبيعة على مبدأ أسبقية المنهج أي الإجراء ذاته، بالنسبة إلى ما يتم تأسيسه بيقين كموضوع محدد لإجراء معين في مواجهة الطبيعة. إن إحدى سمات هذه الأولية تريد أن تقول أن لغياب تناقض القضايا وتماثل المقابلات الأساسية في الفيزياء النظرية وعبر المساءلة التجريبية للطبيعة التي توافق هذا المشروع، تم تحريض الطبيعة على إعطاء أجوبة تبعا لعلاقات محددة. لقد أصبحت، إذا أردنا أن نقول، مجبرة على الكلام. لقد أجبرت على أن تظهر في موضوعية قابلة للحساب.(كانط).

ذلك أن هذا الإجبار المحرض هو ما يشكل بالضبط في آن واحد أساس التقنية الحديثة. إنه

يجبر الطبيعة على أن تسلم الطاقة، يتعلق الأمر بالمعنى الحرفي بفعل إنتاج ومراكمة هذه الأخيرة، ويجعلها تحت تصرفنا. إن هذا الإجبار الذي يهيمن من حين لآخر على التقنية الحديثة ينكشف في صور وأشكال متنوعة ومترابطة في ما بينها. لقد تم استخراج الطاقة المختفية في الطبيعة وما تم إستخراجه تم تحويله تمت مراكمته تمت مراكمته ثم تخزينه وما تم تخزينة تم توزيعه. لقد تمت مراقبة هذه الكيفيات التي ضبطت بواسطتها الطبيعة، وهذه المراقبة يجب أن تكون هي بدورها مضمونة.

إن ما أتينا على ذكره يوحي بأن علم الطبيعة الحديث، مع إرغامه النظري الوظيفي للطبيعة من منظور موضوعية قابلة للحساب، لايمكن أن يكون سوى تنويع من تنويعات التقنية الحديثة. في هذه الحالة، يجب قلب التصور الجاري للعلاقة بين علم الطبيعة والتقنية: لن يغدو علم الطبيعة هو قاعدة التقنية، بل ستغدو التقنية الحديثة هي البنية الحديثة التي يستند عليها علم الطبيعة الحديث. ورغم أن هذا القلب يقترب من الحقيقة، فإنه لا يصل إلى جوهرها. يتعين فيما يخص العلاقة بين علم الطبيعة الحديث والتقنية، أن نفهم أن الطابع الخاص لكل واحد منهما، أصلهما المشترك، يختفي في ما سميناه بالاستفسار التحريضي. لكن فيم يكمن هذا الأخير؟ إنه بالضبط نشاط إنساني على أن يكون هو ذلك السعي للتمثل والإنتاج المرتبط بالطبيعة. فهل التصور الأنثروبولوجي للتقنية لا يوجد فقط مضمونا من حيث شرعيته، بل مدعما بواسطة تأويل التقنية المكتسبة الآن. أم أن هذا التصور سيغدو إشكاليا كلية انطلاقا مما تم ذكره إلى الآن؟ يجب أن نخالف الجواب، عما اعتبرناه في السابق المظهر الثاني للتقنية الحديثة، لمعرفة الطابع الذي لايمكن مقاومته لهيمنتها اللامحدودة.

إن النداء أطلق في مواجهة ذلك إلى حين قريب: من أجل معرفة أنه ينبغي التحكم في سير التقنية، والدفع بها دائما بقوة تجاه إمكانات جديدة للتطور خاضعة للمراقبة–هذا النداء ينسب إلى ذاته وحده بوضوح هذا التخوف. إن الضرورة التي لايمكن للإنسان أن يوقف اكتمالها يمكن أن تجد تعبيرها في التقنية الحديثة، التي لايمكنه أيضا احتواؤها والتحكم فيها. لقد بدأت هذه النداءات تخفت الآن شيئا فشيئا– وهذا شيء ذو دلالة خاصة– وهذا لايعني أن الإنسان قد بدآ يتحكم من الآن في سير التقنية بقبضة ثابتة. إن ما يخفيه الصمت تجاه مسألة المطالبة بالتحكم في التقنية، هو أن الإنسان أضحى في حالة ارتباك وعجز في مواجهتها أي خاضعا لضرورة الإذعان بسهولة– بشكل صريح أو ضمني– للخاصية التي لا تقهر للهيمنة التكنولوجية. فعندما نعتنق التصور العادي للتقنية في خضوع لهذا الشيء الذي لامفر منه، فإننا

نكون قد استسلمنا في الواقع لسيادة صيرورة ترتد إلى مجرد إعداد دائم للوسائل دون اهتمام بتحديد الغايات.

بيد أنه أصبح من الواضح الآن بأن التصور غاية- وسيلة لا يبلغ أبدا ما هو خصوصي في التقنية. إن سمتها الخاصة تكمن في أن فيها تنكشف إلزامية تحريض الطبيعة على أن تسلم وتضمن الطاقة الطبيعية.

إن إثبات هذا الإلزام هو أكثر قوة من كل تعيين للغايات من طرف الإنسان. إن إثبات هذا الإلزام لا يعني شيئا آخر غير الاعتراف بقوة خفية داخل سيادة ما يوجد اليوم. وهذا يعني الخضوع لالزام يتموقع فوق الإنسان، فوق مشاريعه وأفعاله. إن ما هو جوهري في التقنية الحديثة ليس صناعة إنسانية خالصة. إن الإنسان الراهن هو ذاته محرض بواسطة الإلزام الذي يحث الطبيعة على الاستجابة. لقد تم إجبار الإنسان ذاته، لقد تم إخضاعه لضرورة التوافق مع الإلزام.

إننا نقترب من القوة الخفية لما يوجد اليوم، داخل العالم المحدد تقنيا، إذا ما اقتصرنا على معرفة الإلزام الذي ينكشف في قلب السمة الخاصة للتقنية الحديثة، إلزام موجه للإنسان لتحريض الطبيعة على تسليم طاقتها، وهذا بدلا من أن نتهرب من هذا الإلزام محتمين داخل التعيين العاجز للغايات التي تتحدد في الملاذ الوحيد للإنسان فيما هو إنساني كملاذ وحيد.

لكن ما علاقة هذا كله باللغة؟ بأي معنى يصبح من الضروري الحديث عن لغة التكنولوجيين، أي عن لغة محددة بما تملكه التقنية كشيء خاص؟ ماهي اللغة، لكي تكون بالضبط هي المعرضة بشكل خاص لإلزام هيمنة التقنية؟

ترجمة: حسن خيي
مراجعة: د. محمد سبيلا

Matin Heidegger. Langue de Tradition delangue technique trad: M. Haar. L. Osman. 1990.